حقيقة التوجه الإسلامي

في شعر هاشم الرفاعي

بقلم : عبد الآخر حماد

هاشم الرفاعي شاعر مُجيد هزت قصائده مشاعر أبناء الحركة الإسلامية والمهتمين بالأدب الراقي الملتزم في مصر وغيرها، وكان الشباب يتغنون بها في محنهم وخطوبهم ،ومن أشهر قصائده تلك الرائعة المسماة : رسالة في ليلة التنفيذ ،والتي نظمها على هيئة رسالة من سجين لأبيه في ليلة تنفيذ حكم الإعدام فيه والتي مطلعها :

أبتاه ماذا قد يخط بناني * والحبل والجلاد منتظران

هذا الكتاب إليك من زنزانة * مقرورة صخرية الجدران

لم تبقَ إلا ليلة أحيا بها * وأحس أن ظلامها أكفاني

ومن روائعه أيضاً قصيدة شباب الإسلام والتي مطلعها :

ملكنا هذه الدنيا القرونا * وأخضعها جدود خالدونا

وسطرنا صحائف من ضياء * فما نسي الزمان ولا نسينا

ومن أجل هذه القصائد التي تعبر عن هموم الحركة الإسلامية، وتعد جزءاً من أدبياتها ،فإن الكثيرين في الأوساط الإسلامية لا يعرفون عن هاشم الرفاعي رحمه الله إلا هذا الجانب الإسلامي من شعره ،حتى إن بعضهم ظن أنه قد حكم عليه بالإعدام لتوجهاته الإسلامية ،وأنه قد كتب قصيدته (رسالة في ليلة التنفيذ) وهو في زنزانته في الليلة التي سبقت تنفيذ حكم الإعدام فيه ؛وممن وقع في هذا الوهمِ الأستاذُ مصطفى مشهور رحمه الله ؛حيث ذكر ذلك في كتابه : قضية الظلم في ضوء الكتاب والسنة[1] .

والحقيقة أنه قد كانت لهاشم الرفاعي بعض المواقف التي أوذي بسببها ،إلا أن ذلك الأذى لم يصل أبداً إلى حد السجن أو الاعتقال، فضلاً عن الحكم بالإعدام ،كما أنه لم ينتم يوماً إلى أي حركة إسلامية، بل يوجد في تراثه الشعري قصائد عدة يظهر فيها تأييده لثورة الثالث والعشرين من يوليو ،ومن بينها مديح للرئيس السابق جمال عبد الناصر

---

(1) وهو منشور بموقع حقائق مصرية بتاريخ : 7 ربيع الأول 1424هـ = 2003/5/8م.

وغيره من قادة الثورة، وهو ما يحمل الباحث على التأني قبل إصدار حكم قاطع حول حقيقة توجهات هاشم الرفاعي رحمه الله، ومن أجل ذلك جاءت هذه الدراسة المختصرة التي نحاول فيها بعون الله استجلاء حقيقة الموقف الفكري لهذا الشاعر، وذلك من خلال شعره ،ثم من خلال الإلمام قدر المستطاع بسيرته، وظروف مصر والعالم العربي في الفترة التي عاشها.

أولاً : التعريف بالشاعر[2]

هو السيد بن جامع بن هاشم بن مصطفى الرفاعي ،ينتهي نسبه إلى الشيخ أحمد الرفاعي الذي تنسب إليه الطريقة الرفاعية ،وقد اشتهر باسم جده هاشم الرفاعي ،ولد في قرية أنشاص الرمل في محافظة الشرقية بجمهورية مصر العربية ،لأسرة توارثت ريادة الطريقة الرفاعية ،وكان مولده في منتصف مارس عام 1935م.

حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ، ثم التحق بالتعليم المدرسي العام ، ثم بمعهد الزقازيق الديني في العام 1947م،وتخرج منه عام 1956، وكانت الفترة التي قضاها بمعهد الزقازيق ذات أثر كبير في تشكيل معالم شخصيته ،حيث كانت حافلة بالأحداث التي سبقت ثورة يوليو 1952،ثم شهدت قيام الثورة وما تلاها من أحداث وفيها بدأت تتفتح موهبته وتظهر شاعريته ،ثم التحق بكلية دار العلوم بالقاهرة، وفي عام 1957 كان على موعد مع أول خطوة في سبيل نباهة الذكر والالتفات إلى شعره ؛حيث كان لقاؤه بالضابط كمال الدين حسين[3] على إثر قصيدة ألقاها في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة بعنوان : في ذكرى الرافعي ،حيث استدعاه بعد الحفل ،وهنأه وأبدى إعجابه بشعره ،ثم توثقت صلته به، وبدأ الوزير في الاهتمام به وإفساح المجال أمامه ،وتقديمه في كثير من المحافل الأدبية.

وقبل تخرجه من كلية دار العلوم وفي مساء الأربعاء الأول من شهر يوليو 1959م ،قُتل الشاعر هاشم الرفاعي وهو في الرابعة والعشرين من عمره ،على إثر مشادة حدثت في قريته، بسبب خلاف على إدارة النادي الرياضي بالقرية .

---

(2) اقتبسنا هذا التعريف مما ذكره عبد الرحيم جامع الرفاعي(شقيق الشاعر) في مقدمة تحقيقه لديوان هاشم الرفاعي.

(3) أحد قادة ثورة يوليو ووزير التربية والتعليم آنذاك.

ثانياً : الاختلاف حول شعره

لقد كان الرأي الذي أشرنا إليه –والذي يرى في هاشم الرفاعي شاعراً من شعراء الحركة الإسلامية –مقابلاً لرأي آخر ساد فترة من الزمن، لا يرى في هاشم الرفاعي إلا واحداً من أبناء ثورة يوليو المتغنين بأمجادها ،بل والمعادين للحركة الإسلامية التي كانت مناوئة للثورة وهي جماعة الإخوان المسلمين .

وهذا الرأي هو الذي كان يتبناه الإعلام الرسمي في الفترة التي اشتهر فيها هاشم الرفاعي وبعد وفاته ،وكان ممن نصر هذا الرأي وحاول تأييده بكل السبل محمد كامل حتة ، الذي قام بتكليفٍ من كمال الدين حسين بتحقيق ديوان هاشم الرفاعي والإشراف على طبعه لأول مرة في عام 1960م ؛حيث قام بالتصرف في بعض قصائد الديوان بحيث صار لا يظهر منه إلا الوجه المؤيد للثورة ورجالها،حتى إنه أشار إلى أن مصرعه كان على يدي أفراد من جماعة الإخوان المسلمين.

لكن الديوان قد طبع للمرة الثانية في عام 1980 بتحقيق الأستاذ محمد حسن بريغش ،الذي حاول أن يصحح ما رأى أن المحقق السابق قد وقع فيه من أخطاء ،لكنه قام أيضاً –كما يقول شقيق الشاعر– بصبغ الديوان وتطويع قصائده إلى ما يؤمن به من أفكار؛ حيث اعتبره شاعراً معارضاً لحكم عبد الناصر ،وذكر أن اغتياله تم على أيدي الشيوعيين وبتحريض من رجال المخابرات المصرية(4).

ومن أجل ذلك رأى عبد الرحيم جامع الرفاعي (شقيق الشاعر) أن يقوم بنفسه بتحقيق ديوان أخيه ،وقد قدم له بمقدمة ضافية فيها تعريف بالشاعر وتتبُّعٍ لمساره الشعري ،كما حاول من خلال تحقيقه للديوان أن يوضح بعض آراء الشاعر وتوجهاته ،وقد كان رأيه بالنسبة لموضوع بحثنا أن هاشماً لم يكن بوقاً للثورة، ولكنه في نفس الوقت لم يكن يمثل اتجاهاً إسلامياً معيناً ،وأنه انضم إلى حزب الوفد قبل الثورة ،لكنه بعد الثورة لم ينضم إلى أي تنظيم سياسي أوديني ،بل عاش مستقل الرأي يؤيد الثورة وينتقدها ،ويؤيد التيار

---

(4) انظر مقدمة عبد الرحيم جامع الرفاعي لديوان هاشم الرفاعي ص: 4،ص: 24.

الإسلامي وينتقده أيضاً على حسب رؤيته الشخصية ،وأنه اهتم بقضايا وطنه في إطار من العروبة والإسلام ،كما اهتم بقضايا الأوطان العربية والإسلامية[5] .

كما أوضح أن مقتل الشاعر لم يكن له أي بعد سياسي ،وأنه لا الإخوان المسلمون ولا الشيوعيون ولا أجهزة المخابرات لهم علاقة بمقتله،وأنه إنما قتل بسبب خلاف على بعض شؤون النادي الرياضي بقريته ،حيث تحول النقاش إلى مشادة كلامية ثم إلى تشابك بالأيدي ،حيث طعنه أحدهم عدة طعنات نقل على إثرها لمستشفى بلبيس المركزي حيث فارق الحياة وسط ذهول أهل القرية[6].

ثالثاً : أسباب هذا الاختلاف

من أهم أسباب هذا الاختلاف –أو على الأقل من المبررات التي يعتمد عليها كل طرف في تأييد قوله –وجود قصائد للشاعر تحمل فيما بينها قدراً كبيراً من التناقض والاختلاف؛ سواء في موقفه من الثورة ورجالها أو في موقفه من جماعة الإخوان المسلمين ،أو حتى في موقفه من الملك فاروق قبل قيام ثورة يوليو .

وأرى من المناسب هنا أن أورد بعضاً من هذا التناقض الذي أشرت إليه[7] :

1- موقفه من الملك فاروق :

فمن أشعاره في مدح الملك فاروق قوله في قصيدة (عودة الأبطال) التي نظمها في مارس (آذار) 1949 بمناسبة عودة الكتيبة المصرية التي كانت محاصَرَةً بالفالوجة خلال حرب فلسطين :

رعى الفاروقَ ربُ العرش إنا * لنرجو دائماً ألا يضاما

ومن أشعاره في نقده قوله في قصيدة (عقيدة)التي نظمها في يوليو (تموز) 1949:

يا فتية النيل الممجد إننا * نأبى ونرفض أن نساق قطيعا

هذا (ابن نازلي) للهلاك يقودنا * جهراً ويلقى في البلاد مطيعا

---

(5) المصدر السابق ص: 92.

(6) المصدر السابق ص: 24، 91

(7) مصدرنا في هذه الأشعار هو ديوان هاشم الرفاعي بتحقيق أخيه عبد الرحيم جامع الرفاعي .

ونازلي هي أم الملك فاروق كما هو معروف .

2- موقفه من ثورة يوليو

أما أشعاره في النقد الصريح لثورة يوليو وقادها فهي عشر قصائد سماها جـــراح مصر ،ومن تلك القصائد قصيدة (مصر بين احتلالين) التي نظمها في أكتوبر تشرين أول 1954م ،وهو يرى فيها أنه لا فائدة من رحيل الاستعمار البريطاني مع بقاء الظلم الواقع من رجال الثورة وفي ذلك يقول:

قالوا الجلاء فقلت حلم خيال *لا تطمعوا في نيل الاستقلال

ليس الجلاء رحيل جيش غاصب * إن الجلاءَ تحطُّمُ الأغلال

إن يترك الوادي الدخيلُ فإننا * نحيا بمصر فريسة الإذلال

ما كان هذا الأجنبي ببالغ * في البطش مبلغ سالم وجمال

وهو يقصد بسالم صلاح سالم أحد قادة الثورة،ويقصد بجمال جمال عبد الناصر .

ومن تلك القصائد قصيدة جلاد مصر التي نظمها في مـــارس (آذار) 1955م والـــتي يخاطب فيها جمال عبد الناصر قائلاً :

جلادَ مصر ويا كبير بغاها * مهلاً فأيام الخلاص دواني

من أي غاب قد أتيت بشرعة * ما إن يساس بها سوى الحيوان

وبأي قانون حكمت فلم تدع * شيئاً لطاغية مدى الأزمان

إلى أن يقول :

لو كان عهدك قبل عهد محمد * للعنت يا فرعون في القرآن

ومنها قصيدته : (جمال يعود من باندونج) التي كتبها بمناسبة عودة عبد الناصـــر من مؤتمر باندونج بأندونيسيا في مايو (آيار) 1955م ،والتي يعترض فيها على الحفـــاوة البالغة التي استقبل بها جمال عبد الناصر لدى عودته ،ويقول :

من ذلك الصنديد رددت اسمه *هذي الألوف وقلدته وساما؟

أو ليس من فاق الطغاة ضراوة *وأحل من حر الدماء حراما

أو ليس من صب البلاء مضاعفاً *وأثار للرعب البغيض قتاما

وأما أشعاره في مدح الثورة وقادتها فمنها قصيدة بعنوان في عيد الوحدة ألقاها في ذكرى وحدة مصر وسوريا عام 1959 ،وفيها يقول مخاطباً عبد الناصر :

أرى من أمتي جيلا *يسوق الحب إكليلا
مشى في ركبه بردى *وجاء يعانق النيلا
وحيا في مواكبه *زعيماً كان مأمولا
وما علقت أمانيه *بأكرم منك مسؤولا

ثم يقول :

جموع أنت باعثها* وشعب حولك التفا
سعت للخلد في واد *كروض بالمنى رفا
رأيتهمو وقد وقفوا *وراءك كلهم صفا
شباب إن تصافحه * يصافح للعلا كفا

ويقول من قصيدة شعب وقائد التي ألقاها في حفل أقامه الاتحاد القومي في يونيه (حزيران) 1959 بمناسبة عيد الجلاء :

هذي حكاية أمتي في ثورة * أهدت إليها صانعاً موهوبا
لم يحيي شعباً واحداً لكنما * أحيا الإله على يديه شعوباً

ويقول من قصيدة ألقاها بين يدي أنور السادات في نوفمبر 1954:

يا قاضياً بالحق فيمن أفسدوا * حكماً لنا في سالف السنوات
يمناك كم وضعت غداةَ وُثُوبِكم * في صرح وادي النيل من لبنات
أنا لست أنسى يوم ثورة جيشنا * صوتاً قوياً صادق النبرات
قد رن في المذياع صوتك حاملاً * بشرى بعهد دافق الحسنات

وهو يشير في البيت الأخير إلى كون السادات هو الذي أذاع بيان قيام الثورة صبيحة الثالث والعشرين من يوليو 1952م .

3- موقفه من جماعة الإخوان المسلمين

من أشعاره في الثناء على دعوة الإخوان قوله في قصيدة مصر الجريحة التي كتبها في يوليو (تموز) 1951م:

فهناك جند قام يسعى جاهداً * في الدين يقتلع الفساد ويترع

الله أكبر في الحياة نداؤه * يمشي بها نحو الخلود ويسرع

لله در القوم إنَّ نفوسهم * لتشع بالحق اليقين وتنبع

سُلَّت سيوف البغي فوق رؤوسهم * وأمضهم كأس العذاب المترَع

فتحملوا ألم الأذى ببسالة * وبهمة قعساء لا تتضعضع

فهو في هذه الأبيات يقصد جماعة الإخوان المسلمين فهم الذين شعارهم الله أكبر ولله الحمد،ويشير إلى ما نالهم من الأذى على يد حكومات ما قبل الثورة،ومما يؤكد ذلك أنه قد أرسل هذه القصيدة ،إلى مجلة الدعوة (مجلة الإخوان المسلمين) ،ومعها رسالة ،يثني فيها على الأستاذ البنا رحمه الله ،ثم يقول : ((سيدي هذه قصيدتي مصر الجريحة أرسلها إليكم راجياً التفضل بنشرها ؛فهي ليست إلا صدى لتلك الصيحة المدوية التي أرسلها الإمام الشهيد ،وتلك الفتنة العمياء التي اصطلى بنارها جنود الإخوان في عهد الظلم والطغيان))[8].

ومن أشعاره في نقد دعوة الإخوان قصيدة بعنوان دعوة الجيب نظمها في سبتمبر 1952م يقول فيها :

رهط من الأطفال والصبيان * قالوا عليهم شعبةُ الإخوان

منهم من احترف القيام ببدعة *عند اشتداد الجوع والحرمان

فتراه جاء بخدعة مفضوحة * يسعى لنيل الأصفر الرنان

جمعوا لها مالاً وقالوا للهدى * فإذا به قد راح للشيطان

وهذه القصيدة على وجه الخصوص قد تأولها محققو ديوانه في طبعاته الثلاث تأويلات مختلفة متباينة ،بحسب ما يراه كل منهم في الشاعر ؛فأما محمد كامل حتة فقد احتفى بتلك القصيدة احتفاء كبيراً ،وجعل عنوانها (حق يراد به باطل)،واتخذها دليلاً على عداء الشاعر لحركة الإخوان ،بينما رأى الأستاذ محمد حسن بريغش أن سبب هذه القصيدة أن هاشماً –وهو شاعر البلدة وابن شيخ الطريقة الرفاعية بها– رأى في وجود شعبة الإخوان خطراً عليه وعلى طريقته الصوفية فهاجمها هذا الهجوم الشديد ،في حين يرى

(8) رسالة في ليلة التنفيذ دراسة وتحقيق وتعليق مجدي الشهاوي ص: 19.

أخوه عبد الرحيم جامع أن كلا القولين غير صحيح،وأن سبب هذه القصيدة أن بعض أعضاء شعبة الإخوان قد هجموا على النادي الرياضي الذي أنشأه الشاعر في بلدته ،فنظم تلك القصيدة رداً عليهم وهو يهاجم أشخاصاً بعينهم ،ولا يهاجم مبادئ الدعوة(9) .

ولا شك أنه لا دليل على ما ذكره بريغش من أن مهاجمة الشاعر لشعبة الإخوان ،كانت من أجل الخوف على مكانته ومكانة أسرته وطريقته الصوفية،كما أن ما ذكره محمد كامل حتة من عداء الشاعر لحركة الإخوان يرده ما سبق من مدحه لهم ،وثنائه على الأستاذ البنا رحمه الله ،غير أن ما ذكره شقيق الشاعر من أن نقد الشاعر كان موجهاً فقط لأشخاص بعينهم،هو قول أيضاً –في رأينا – غير سديد ؛إذ يرده أن الشاعر قد تعرض لجماعة الإخوان نفسها في أبيات أخر من نفس القصيدة ؛حيث يقول:

تلك الجماعة قد تنبأنا لها * باهدم يوم إقامة البنيان

إنا وجدنا القائمين بأمرها * شر الدعاة وأضعف الأعوان

فإذا تناهى الضعف بين جماعة * ذاق الجميع مرارة الخذلان

رابعاً : مسلك الفريقين في دفع هذا التضارب

أمام هذا التناقض كان على كل طرف من الطرفين المختلفين أن يجيب عن القصائد المخالفة لرأيه ،فأما المحقق الأول لديوان هاشم الرفاعي (وهو كما أسلفنا محمد كامل حتة) فإننا نكاد نقول إنه كان معذوراً فيما ذهب إليه من كون الشاعر مؤمناً بفكر الثورة معادياً لجماعة الإخوان المسلمين ،وذلك أنه وإن كان قد تصرف في بعض قصائد الديوان بما يوافق الوضع السياسي السائد في تلك الأيام ،إلا أننا نكاد نجزم بأنه لم يطلع على القصائد التي ينتقد فيها الشاعر ثورة يوليو وقادتها ،وذلك لسبب يسير هو أنه إنما تسلم قصائد الشاعر من إخوته بعد وفاته(10).

و لم يذكر شقيق الشاعر أنهم سلموا لمحقق الديوان تلك القصائد، والذي أراه أنه لم يكن من الممكن في ظل الظروف التي كانت سائدة وقت ذاك أن تقوم أسرة الشاعر بإبراز تلك القصائد المعادية للثورة ،وتقديمها لمن ينشرها في ديوان أَمَر بنشره واحدٌ من قادة تلك

(9) انظر مقدمة عبد الرحيم جامع الرفاعي لديوان هاشم الرفاعي ص: 24.

(10) كما ذكر شقيق الشاعر في تقديمه لطبعته من ديوان الشاعر ص: 3.

الثورة ،بل إن الشاعر نفسه كان يحرص على إخفاء تلك القصائد، و لم يُطْلِع عليها إلا نفراً قليلاً ممن يثق بهم من أصدقائه[11].

ثم إن العودة إلى الفترة التي سبقت وفاة الشاعر، وما كان ينشر عنه وقتها لا بد أن توحي بمثل هذا الذي رآه كامل حتة ،فقد كان الواضح من حال الشاعر أنه من المقربين من رجال الحكم ؛حتى إنه ألقى قبل وفاته ببضعة أشهر قصيدة في مناسبة ما كان يسمى بعيد الوحدة بين يدي الرئيس جمال عبد الناصر وضيفه الرئيس اليوغسلافي تيتو ،وقد أذيعت من الإذاعة المصرية على الهواء مباشرة ،ثم تقدم الشاعر بعد إلقاء قصيدته لمصافحة عبد الناصر الذي شد على يده بقوة قائلاً : لا فض فوك[12].

وقد كان الشاعر كما أسلفنا من المقربين لوزير التربية والتعليم كمال الدين حسين ،وقد نشرت جريدة الجمهورية خبر وفاته تحت عنوان : اغتيال الطالب المثالي للجمهورية العربية المتحدة ،وذكرت في تفاصيل الخبر أن وزارة التربية والتعليم كانت قد قررت تدريس قصيدتين من قصائده على طلبة المدارس رغم أنه لا يزال طالباً ،وأن وزير التربية والتعليم قد اختاره مندوباً عن الشباب في مؤتمر الشعر الذي عقد في الإقليم الشمالي[13]،كما ذكرت الصحيفة أن شقيق الشاعر قد أبلغ سعيد العريان (الوكيل المساعد لوزارة التربية والتعليم) هاتفياً بنبأ مصرع الشاعر فلم يصدق الخبر ،وصرخ في شقيقه قائلاً : أنت كذاب ،ثم بكى وألقى بسماعة الهاتف من يده[14].

أما بعد وفاته فقد دعا المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب برئاسة كمال الدين حسين إلى حفل لتأبينه، وكان من المتحدثين في ذلك الحفل كمال الدين حسين ،والكاتب

---

(11) المصدر السابق ص: 62.

(12) المصدر السابق ص: 82.

(13) وهو الاسم الذي كان يطلق على سوريا في فترة الوحدة بين مصر وسوريا،وقد ألقى في ذلك المؤتمر قصيدته المشهورة :رسالة في ليلة التنفيذ.

(14) جريدة الجمهورية عدد :1387/12/27 الموافق 1959/7/3م ،نقلاً عن كتاب رسالة في ليلة التنفيذ ص: 9 .

يوسف السباعي الذي كان سكرتيراً للمجلس الأعلى لرعاية الفنـــون والآداب ،وبعـــض أساتذة الشاعر في كلية دار العلوم[15].

فهذا كله مما يستند إليه من ذهب إلى أن هاشماً الرفاعي كان شاعراً وطنيـــاً مـــن المدافعين عن ثورة يوليو ورجالها .

مسلك الفريق الثاني :

أما من يرون في هاشم الرفاعي شاعراً إسلامياً معبراً عن هموم الحركة الإســـلامية معارضاً لثورة يوليو ،فلا شك أنهم يعتمدون على ما سلفت الإشارة إليه من القصائد التي تنتقد جمال عبد الناصر ومن معه ،كما يعتمدون على الحس الإسلامي الذي يظهر في كثير من قصائد الشاعر، وفي ذلك يقول الأستاذ مجدي الشهاوي : ((وللذين يحلو لهم دائماً أن يرددوا أن هاشم الرفاعي كان صوتاً من أصوات الثورة، ولساناً من ألسنة جمـــال عبـــد الناصر ،لهؤلاء نقول : لقد قدمنا للمكتبة العربية بعون الله تبارك وتعالى وتوفيقه الـــديوان الممنوع: جراح مصر – القصائد العشر- للشاعر رحمه الله ،وهذه القصائد مـــن أفضـــل وأجمل وأصدق ما كتبه الشاعر من شعر المعاناة ،والتي تتناول حكـــم الثـــورة ورجالهـــا ،وأقرءوا معي قوله لعبد الناصر:

لو كان عهدك قبل عهد محمد * للعنت يا فرعون في القرآن))[16].

كما استدل الشهاوي في موضع آخر برسالة الشاعر التي أرسلها إلى مجلة الدعوة بعد مقتل الأستاذ البنا رحمه الله والتي سبقت الإشارة إليها[17] .

ويرى أصحاب هذا الرأي أن ما قاله الشاعر في مدح الثورة وقادتها، إنما قاله مـــن باب التقية ،أو نتيجة انبهار شديد بما كان سائداً آنذاك في أجهزة الإعلام وغيرها حـــول عبد الناصر ورفاقه .

ومن ذلك قول الدكتور جابر قميحة أستاذ الأدب العربي بجامعة عين شمـــس : ((ظلت الساحة الأدبية تتلقى لأكثر من عشرين عاماً نتاج الشاعر المبدع هاشم الرفاعي على

---

(15) رسالة في ليلة التنفيذ بتحقيق مجدي الشهاوي ص: 12.

(16) من تقديم الكاتب المذكور لقصيدة رسالة في ليلة التنفيذ ص: 5.

(17) المصدر السابق ص: 17.

أنه شاعر الثورة، وذلك اعتماداً على أبيات باردة يعرف القاصي والداني أنه نظمها تقية، وبعضها وقع فيه هاشم تحت هالة الإبهار الزاحف بقوة في حينه، أما شعره الحقيقي الذي يمثل موقفه الحقيقي من الثورة والثوار فلم ينشر، ولما نشر بعضه الآن انقلب السحر على الساحر، وقد توافر الآن من الإبداع الصادق لهاشم أكثر من 35 قصيدة لعل أشهرها رسالة في ليلة التنفيذ، وهي لا تحتاج إلى ناقد ومتخصص ليقرأها، وليحكم من خلال كل كلمة فيها على هوية الرفاعي الحقيقية وهي الإسلام الواضح الصحيح في أسمى صوره، وأرقى وأزهى مواقفه التعبيرية والإبداعية))(18).

خامساً : إذن ما حقيقة الموقف الفكري للشاعر؟

لا شك – بعد ما رأينا من نقد هاشم رفاعي للثورة ورجالها– أنه لا وجه الآن لاختزال شعر هاشم الرفاعي في كونه شاعر الثورة ،أو أنه أحد دعاة القومية العربية أو الوطنية المصرية، لكنا في نفس الوقت نرى أن الاكتفاء بقصائده الإسلامية وغض الطرف عما أوردنا من تمجيده للثورة ورجالها ،هو مسلك غير سديد .

والقول بأن مدحه للثورة ورجالها كان من باب التقية ،هو قول لا دليل عليه ،والأصل مسؤولية الإنسان عما يقوله حتى يثبت بالدليل القطعي أنه إنما كان يقول ذلك عن غير اقتناع، ثم إننا نعلم أن التقية تكون حينما يجد الإنسان نفسه تحت ضغط وتهديد شديدين يجبرانه على القول بما لا يعتقد، ونحن لا نعلم من سيرة هاشم الرفاعي أنه تعرض لشيء من ذلك، وهب أنه كان هناك ما يحمله على الخوف من بطش الحاكم الظالم ،أفما كان يمكنه إيثار السلامة بالسكوت عنه فلا يمدحه ولا يذمه ؟

أما ما ذكره الدكتور جابر قميحة من أن الشاعر قد وقع تحت هالة الإبهار الزاحف وقتها فإنا نراه استنتاجاً صحيحاً،لكنا لا نوافق –كما سيأتي –على أن هذا الإبهار كان مجرد عارض وقتي صرف الشاعر ظاهرياً عن فكر حقيقي كان مستقراً عنده .

كما أننا لا نوافق شقيق الشاعر في ما ذهب إليه من أن الشاعر كانت له رؤيته المستقلة بحيث كان يؤيد الثورة وينتقدها ،ويؤيد التيار الإسلامي وينتقده أيضاً على

(18) من مقال بعنوان : الزيغ الفكري والنقد المقلوب نشر بموقع لها أون لا ين بتاريخ 1424/12/6.

حسب رؤيته الشخصية؛ وذلك أن هذا الكلام قد يصح حين يكون النقد أو المديح متعلقاً بموقف معين يريد الشاعر إبداء الرأي فيه ،بينما الواضح من الأمثلة التي ذكرناها –وغيرها في ديوانه كثير–أنه كان غالباً ما يمدح مدحاً عاماً ،وينتقد نقداً عاماً ،فإذا نقد عبد الناصر مثلاً فهو فرعون مستحقٌ أن يلعن، وإذا مدحه فهو الزعيم الذي أحيا الله بـه الشـعوب العربية كلها ،وهذا ما يُستبَعد معه وجود رؤية مستقلة ناضجة لدى الشاعر رحمه الله .

والذي نراه أن هاشماً الرفاعي –وقد توفي في الرابعة والعشرين من عمره –فإنه ظل طيلة عمره الأدبي القصير شاباً صغيراً ،قوي العاطفة سهل التأثر بما يراه ويسـمعه ،فربمـا رأى موقفاً فتأثر به ،ثم رأى نقيضه فتأثر به أيضاً ،ولا شك أنه يدخل في ذلك ما أحاطه به بعض رجال النظام المصري من التقديم والتكريم على صغر سنه ،وهو ما دفعه للانبهار برجال الثورة وغض الطرف عن أخطائهم ،ولذلك نظنه كان –والله أعلم– صادقاً مـع نفسه رغم تناقضات شعره التي أشرنا إليها ،فهو في كل لحظة يعبر عن مكنونات نفسـه وما يدور بخلده ،دون أن تتكون لديه رؤية مستقلة تنبع منها آراؤه ومواقفه .

كما أن الظاهر من حال الشاعر أنه لم تتبلور في ذهنه الفروق الجوهرية بين الدعوة للوطنية أو القومية وبين الدعوة الإسلامية الحقة التي لا ترضى بغير القرآن والسنة دستوراً للحياة ،وهذا يعني في نظرنا أنه لم يكن يقصد بأشعاره أن يكون منتمياً لهـذا الاتجـاه أو ذاك، وإنما كان همه التعبير عما يجول بخاطره في ضوء ما يتأثر به من الوقائع والأحداث.

وعلى ذلك نقول إنه ليس من الصواب القول بأن طائفة من شعره تمثـل موقفـاً حقيقياً ثابتاً له، لا قصائده في مدح الثورة، ولا قصائده في نقدها، وقل مثـل ذلـك في مواقفه من الإخوان وغيرهم.

سادساً : استدلالات وتوضيحات

مما يسهم في توضيح هذه الرؤية التي وصلنا إليها ما يأتي :

1– أنه بمراجعة ديوان الشاعر في طبعته التي حققها شقيقه نلاحظ أن قصائده التي يمـدح فيها الثورة أكثر من الناحية العددية من تلك التي ينتقد فيها الثورة،كما أن أكثرها جاء في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر ،حتى إن آخر قصيدة وجدت على مكتبه ،ولم تكتمـل

كانت قصيدة كتبها ليحييِّ بها ثورة يوليو في ذكراها السابعة ،ونعني بذلك أنه إن كان لا بد من ترجيح لأحد موقفيه فالأصل أن المتأخر ناسخ للمتقدم ،ولكن إحسان الظن بالشاعر وما ظهر من مواقفه الإسلامية حتى في ثنايا قصائده المتأخرة ،وكونه لم يؤثر عنه أنه تراجع عن شيء مما كتبه في نقد الثورة، كل ذلك يحملنا على عدم إهمال الجانب الآخر من شعره ،كما يحملنا على القول بأن مدائحه للثورة لم تكن من قبيل التبني لكل أفكارها ورفض ما عداها.

2- أنه بمراجعة تاريخ كتابة القصائد التي وجه فيها نقده اللاذع للثورة ورجالها ،نجد أن غالبيتها قد كتب في العام الدراسي 1954-1955م ،وهو العام الذي شهد فصله مع مجموعة من زملائه من معهد الزقازيق الديني بسبب تنظيمهم مؤتمراً قرروا فيه الإضراب عن الدراسة حتى يستجاب لمطالبهم بعدم تقليص العلوم الشرعية واللغوية بالأزهر[19]،والمقصود هنا أن نربط بين الحالة النفسية التي كان يعيشها الشاعر خلال فترة فصله من المعهد وبين نقده اللاذع للثورة ورجال الحكم،وهو ما نستنتج منه أن عداءه للثورة لم يكن عداءً مستحكماً مبنياً على اختلاف فكري بقدر ما كان مبنياً على انفعالات وقتية وتأثرات عاطفية .

3- أنه مما يوضح ما ذكرناه من عدم تبلور الفروق الجوهرية بين الدعوات الوطنية أو القومية وبين الدعوة الإسلامية لدى الشاعر ،أن نعلم أن ذلك كان حال الكثيرين في مصر في تلك الفترة ؛حتى إنا لنجد الشاعر محمود غنيم يخلط في قصيدته الشهيرة (وقفة على طلل) بين العروبة والإسلام فيقول :

ويْحَ العروبة كان الكون مسرحها * فأصبحت تتوارى في زواياه
أنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلدٍ * تجده كالطير مقصوصًا جناحاه

بل يعتبرهما وجهين لعملة واحدة حيث يقول :

هي العروبة لفظ إن نطقت به * فالشرق والضاد والإسلام معناه

(19) من تقديم شقيق الشاعر لديوانه ص: 46

وذلك أن الدعوة إلى الفكرة القومية باعتبارها بديلاً عن الفكرة الإسلامية لم تكن منتشرة في مصر كانتشارها في بلاد الشام والعراق ،على يدي أصحاب حزب البعث ،الذين قال قائلهم :

آمنت بالبعث رباً لا شريك له * وبالعروبة ديناً ما له ثاني

أو كما قال الآخر :

سلام على كفر يوحد بيننا * وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

ولذلك ذكر أكرم الحوراني (أحد قادة حزب البعث السوري) في مذكراته أنه التقى بكمال الدين حسين وقت التحضير للوحدة المصرية السورية ،وأنه فوجئ بكمال الدين حسين ينتقد بشدة فكرة القومية العربية ويعتبرها مخالفة للإسلام، وتعجب الحوراني من هجم رجل جاء ليشارك في مباحثات الوحدة على مفهوم القومية العربية.

وفي رأيي أن انتقاد كمال الدين حسين للقومية العربية لم يكن موجها لفكرة العروبة والوحدة العربية، وإنما كان نقداً لفكرة القومية العربية باعتبارها بديلاً عن الإسلام بالصورة التي أشرنا إليها قبل قليل.

4- وما دمنا قد أتينا على ذكر كمال الدين حسين، فإنه لا بد من العودة مرة أخرى إلى العلاقة الخاصة التي جمعت بينه وبين شاعرنا هاشم الرفاعي، فإننا نظن أن اتصاله بكمال الدين حسين وتأثره به قد يفسر جانباً من هذا التناقض الذي لمسناه في شعره ،وذلك أن كمال الدين حسين رغم كونه واحداً من قادة ثورة يوليو إلا أنه كان يتمتع باستقلالية في التفكير ،وقد اختلف مع عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ،ثم مع السادات بعد توليه رئاسة الجمهورية ،ومن أهم ما يشار إليه في هذا المجال محاولته تقريب الأفكار التي كانت تنادي بها الثورة إلى أحكام الشريعة الإسلامية ،وقد ذكر عبد اللطيف البغدادي في مذكراته أن كمال الدين حسين قال لعبد الناصر ذات مرة : إن اشتراكيتنا يجب أن تنبع من ديننا ،وليس من نظريات ماركس ولينين .

وكذلك كان لكمال الدين حسين موقف مشهود إبان محنة الإخوان المسلمين في سنة 1965م ؛ حيث أبدى تعاطفاً كبيراً معهم ،وأرسل لعبد الناصر خطاباً شديد اللهجة يقول له فيه: اتق الله ،ويستنكر فيه ما وقع على الإخوان من التعذيب الرهيب ،ولذلك

اهمه عبد الحكيم عامر بأنه كان يدافع عن سيد قطب ويقتني كتبه ،وقد أقر كمال الدين حسين في أحد الحوارات الصحفية بإعجابه بكتاب معالم في الطريق للأستاذ سيد قطب رحمه الله مع عدم موافقته على بعض آرائه ،وأنه قد أهدى نسخاً من هذا الكتاب لبعض أصدقائه[20].

كما أنه بعد مقتل الرئيس السابق أنور السادات والحكم بالإعدام على الأخ خالد الإسلامبولي ورفاقه ،فإنه –أي كمال الدين حسين- أرسل هو والأستاذ فتحي رضوان رسالة للرئيس المصري حسني مبارك يطالبانه فيها بالعفو عن أولئك الشباب ،على أساس أنه لم يكن بينهم وبين السادات خصومة شخصية ،وإنما كانت غايتهم تحقيق العقيدة، التي ملأت نفوسهم من جميع أقطارها، وأن سيرة الرئيس السابق في الحكم، وتعطيله للحريات، وإهانته المستمرة للشيوخ والعلماء ، هو ما دفع أولئك الشباب للقيام بما قاموا به.

والمقصود أنه لا يبعد أن يكون هاشم الرفاعي قد تأثر بآراء الرجل الذي قربه إليه وقدمه للناس، وهي آراء كما رأينا تحاول الجمع بين النظرة الإسلامية وفكرة العروبة ،كما أنها ترى في سلبيات الثورة مجرد أخطاء صغيرة أو كبيرة ،لكنها لا تنطلق في التعامل معها من منطلق عقدي يجعل الاختلاف معها اختلافاً جذرياً يستوجب البراءة منها بحسب المصطلح الشرعي المعروف.

5- كما أن المطالع لديوان هاشم الرفاعي لا بد أن يجد فيه أشياء لا تمثل الأدب الإسلامي الملتزم ؛ونحن وإن كنا لا نرى تعارضاً بين الالتزام الإسلامي وبين أن يتناول الشاعر ما يشاء من أغراض الشعر ،إلا أنه لا بد من الحرص دائماً على الوقوف عند حدود ما شرعه الله تعالى ،ولقد رأيت في شعر هاشم الرفاعي بضع قصائد ومقطوعات شعرية أرى أنها لا تليق بمن كان الإسلام منهجه وتوجهه ،وأنا أشير إلى بعضها دون تفصيل : فمنها قصيدة بعنوان راقصة ،يصف فيها -بإعجاب- حركات إحدى الراقصات من تمايل وانثناء وكشف عن بعض جسدها ونحو ذلك ،ومنها قصيدة في الإشادة بمقطوعة موسيقية لمحمد عبد الوهاب ،ومنها ذِكْره في بعض قصائده المبكرة للخمر والشراب،وغير ذلك .

---

(20) جاء ذلك في كتاب بعنوان مؤامرة اغتيال المشير عامر للصحفي محمود فوزي ص: 100 .

ولست أريد أن أظلم الرجل أو أن أشوه صورته؛ فهذه الهنات مما يتوقع من شاب في مثل سنه، وربما قالها من باب : أعذب الشعر أكذبه، لكني أردت فقط أن أبين أنه كان في شعر هاشم الرفاعي جانب لا يمكن بحال نسبته إلى الإسلام الواضح الصحيح ،الذي يرى الدكتور جابر قميحة أنه التوجه الحقيقي له.

وأخيراً :

فلست أشك في فصاحة لسان هاشم الرفاعي وعبقريته الشعرية ،فقد شهد له بذلك رجال الشعر وأساتذة البيان ،حتى قال أستاذه الشاعر على الجندي : ((لو قدر لهاشم الرفاعي البقاء إلى سن الثلاثين لغطى على جميع شعراء العربية في العصر الحاضر))[21].

وفي نظري أنه يكفي في الدلالة على نبوغه الشعري أنه –وهو الذي لم يدخل سجناً قط– استطاع في قصيدته (رسالة في ليلة التنفيذ) أن يتقمص شخصية مسجون محكوم عليه بالقتل، فيصور أحاسيسه ومشاعره ،ويصف أحوال السجن والسجين والسجان بأبرع ما يكون التصوير.

كما أننا لا نماري في أن التوجه الديني عنده توجه أصيل ،لكنه توجه مشوب بالنزعة الصوفية على ما رأينا عند الحديث عن أسرته ونشأته، وإنما كان حديثنا منصباً حول تمحيص القول حول انتمائه للحركة الإسلامية، أو اعتباره شاعراً إسلامياً بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن من هذه التسمية ،من حيث كون الشاعر منحازاً للقضايا الإسلامية رافضاً أي فكرة تخالف شرع الله عز وجل ،فهذا الذي قصدته وأرجو أن أكون قد وفقت فيه .

(21) رسالة في ليلية التنفيذ بتحقيق مجدي الشهاوي ص: 11.